

بقلم أسعد جابر *



الفيلسوف الهولندي الشهير باروخ سبينوزا.

يمكننا اعتبار التعددية الثقافية التي يمتاز المجتمع الهولندي بها منذ القدم ، الموضوع الأكثر حضورا في الخطاب الهولندي سياسيه وثقافيه ومجتمعيه سواء كان ذلك بشكل مباشر أو خفي ، في الأزمات أو في حالات الهدوء النسبية .

لنأخذ مثلا ٢ كتب صدرت مؤخرا متناولة حياة الفيلسوف الهولندي الذائع الصيت باروخ سبينوزا وفكره وقام بعرضها

والتعليق عليها في جريدة NRC ميخيل ليزينبيرخ

تحت عنوان رئيسي: كيف نستخدم سبينوزا ! وأخر فرعي: نظرة معاصرة على مفكر ذي جذور يهودية - إسلامية ! ثم شرع بالتعريف به قائلا : إنه مهاجر من الجيل الثاني نجح في صراعه مع مجتمع البحر المتوسط المتدين المنزمت . وأضاف : يكاد

يكون سبينوزا مثلا يُحتذى لانباء المهاجرين الحاليين ..

إلى هنا والكلام جميل لا عيب فيه ولا تثير . لكننا عندما نغمق في حياة سبينوزا نجد أنه وُلد في أمستردام عام ١٦٣٢

لعائلة برتغالية يهودية . تلقى تربية متمزة دينيا فدرس التوراة والعبرية والتلمود وفلسفة الأديان مما جعل طبيعته الناقدة

وتعطشه للمعرفة تتصادم مع مجتمعه اليهودي الأورثوذكسي لأنه جهر بالقول بأن الله كامن في الطبيعة والكون وبأن النصوص الدينية ما هي إلا استعارات ومجازات هدفها

التعريف بطبيعة الله . عام ١٦٥٦ نبذ أهله ولفظته الجالية اليهودية ورفض الكاثوليك والبروتستانت آراءه وحاول أحد المتعصبين طعنه . أما هو فقد كسب قوته بالعمل في

صقل الساعات رافضا كرسى استاذ الفلسفة في جامعة هايدلبيرغ لأنها اشترطت عليه عدم التعرض للسلطة الدينية . بعد موته بعام أي عام ١٦٧٨ صادرت الدولة الهولندية

كافة كتاباته وأصبح اسمه مرادفا لكل ما هو سيء لدرجة أن اسمه حُرّف ليُصبح (باروخ الملعون) . ما أريد إضافته هو أن المجتمع الهولندي قائم على الفصل بين الدين

والدولة أي أن الوضع يختلف عما كان عليه أيام سبينوزا ومع ذلك يُطلب من ابناء المهاجرين الاقتداء به لكن أحدا لم يُحرك ساكنا وقامت الدنيا ولم تقعد عندما ذكر أحد

أشهر الاعلاميين الانجيليين - كنيفيل أنه لا يؤمن بحرفية قصة الخلق التي وردت في التوراة . كما أننا نذكر أن هولندا احتضت بمناسبة مرور ٥٠٠ عام على ولادة يوهانس

كالفين وهو المُصلح الكنسي الذي ناهض تعاليم الكنيسة الكاثوليكية في تصويرها الاله .. لقد كان احتفاء شاملا بذكري رجل كان تأثيره في هولندا قويا لسنوات خلت في كافة

نواحي الحياة التي كانت تتسم بالتشرف والاعتدال والعمل بجد علما بأننا نشاهد منذ الطفلة الاقتصادية تراجعنا وانحسارنا في أسلوب الحياة هذا الذي أفسح المجال أمام

التمتع بمباهج الحياة ونعيمها . من ناحية أخرى فان استفقاء أجرته مؤسسة أبحاث (سين وجيم) العام الماضي أظهر أن ٥١٪ من المستفتين أجابوا بأنهم يولون العناصر

الدينية في عيد الميلاد أهمية كبرى ..

وأخيرا فاننا نلاحظ أنه منذ ١١ سبتمبر فان الساحة الهولندية مفتوحة أمام تيارين أولهما وطني نلحظه في البرامج التليفزيونية والاذاعية التي تتكرر فيها مفردة هولندا

فمن هولندا ترقص إلى هولندا تمارس الرياضة وثالثة هولندا أذكي وهكذا .. إلى ظهور العديد من الكتب التي تسرد التاريخ الهولندي بكافة مراحلها ، أما التيار الآخر فديني

وذلك لا نراه فقط من الاستفتاء المذكور أعلاه بل في اعتلاء حزبين متدينين سدة الائتلاف الحكومي الحالي ..

كل هذا جميل ورائع فلماذا يُطالب المهاجر الأجنبي بالانسلاخ عن دينه وجذوره وكأنهم العقبة الوحيدة أمام الاندماج طالما أن المجتمع الهولندي برمته أخذ في الميل سواء إلى

الوطنية أو التدين .. عجبني ...

ما بين ٢٠٢٠ و ٢٠٢٤ !

(حق العودة) رواية للكاتب الهولندي Leon de Winter صدرت العام الماضي في أمستردام وقد شدني عنوانها لاقتنائها مباشرة ذلك أن أول ما يتبادر إلى ذهن العربي عند

قراءته أو سماعه (حق العودة) هو حق عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى مدنهم وقراهم التي هجروها/ هُجروا منها العام ١٩٤٨ ! فتبادر إلى ذهني أنّ الكاتب وهو المدافع

الأول عن السياسات الاسرائيلية قد تحوّل ١٨٠ درجة ذلك أنّ أول ما يطالعك بعد الغلاف هو خارطة اسرائيل منذ العام ١٩٤٨ وهناك خطوط أخرى تشير إلى حدود اسرائيل

في العام ٢٠٢٤ ! والكاتب الذي بنى روايته التي تنتمي إلى جانب الانارة على فرضية أن حدود اسرائيل ستقلص في ذلك العام لتُصبح كما وضعها على الغلاف الداخلي أي

ستمتد ما بين الخضيرة شمالا حتى أشدود في الجنوب الغربي واصله موديعين شرقا مارّة على مقربة من القدس . وكل ذلك لأنه يعتقد بأن حل مشكلة الشرق الأوسط لن يكون

إلا عبر واحد من إحتمالين أولهما أن ييأس الطرف الاسرائيلي فيبدأ العلمانيون من اليهود بالهجرة أسفين على عدم تحقيق حلمهم الجميل ! أو أن يُصبح أحد الفريقين

الأقوى مُرشحا الفريق الفلسطيني وعندها سيقومون بالقاء اليهود في البحر ! وقد بنى روايته على شخصية برام مانهايم الذي يتنقل ما بين تل أبيب وأمريكا بحثا عن ابنه

الذي اختفى فجأة وفي نفس الوقت يرعى والده المقعد الحاصل على جائزة نوبل علاوة على أنه يحمل مخطوطة حول نكبة ١٩٤٨ .. لا أريد الدخول في تحليل الشخصيات

وتبسيطه لبعضها وإنما أريد الإشارة إلى أن أرنون سوفيير الباحث الاسرائيلي من جامعة حيفا كان قد أصدر كتابا بعنوان : دولة تل أبيب خطر على اسرائيل ! قبل الروائي

الهولندي بمدة كبيرة مشيرا إلى أن سياسة اسرائيل في السكنى حول تل أبيب تمنح الفلسطينيين إمكانية السيطرة على الأطراف مما يجعل اسرائيل تتقلص لتصبح مطابقة

للخارطة التي وضعها الروائي الهولندي في كتابه ... ولا أريد هنا استخدام مفردات مثل (سرقة أدبية) .. ولكني أفضل استخدام نقادنا العرب الذين وصفوا مثل هذه الحالات

ب (وقوع الحاضر على الحاضر) ! وطالما أنّ الشيء بالشيء يُذكر فقد وقعت ، أثناء بحثي في (بأجوج ومأجوج) وماذا يعرف مستخدمو الشبكة العنكبوتية عنهما ، على موقع -

أرقام - وجدت فيه أن الباحث بسام جرّار أثناء تواجده في مرج الزهور في الجنوب اللبناني وكان من ضمن ٤٠٠ مُبعد كان رئيس الوزراء الاسرائيلي قد أبعدهم ، قد توصل

معمدا على حساب آيات قرآنية ليحصل على أن زوال اسرائيل سيكون في العام ٢٠٢٢ . وكما درج مفسرنا على ختم أبحاثهم وتعليقاتهم في مثل هذه الموضوعات أختم

موضوعي قائلا مثلهم ..

والله أعلم .

(للفائدة ورد ذكر بأجوج ومأجوج في القرآن في سورة الكهف الآية ٩٤ وفي سورة الأنبياء الآية ٩٦) .